

ومتطلبات المهنة. فهو يحذر من ترك مسئولية تربية الأبناء حديثي السن إلى من لا تتوفر فيهم دماثة الخلق وفضيلة الشرف والعفة والتسامح والصدق والعدالة، مؤكداً مع محمد علي الشوكاني⁽¹⁾ على أن السفالة والوضاعة وغلظة الطباع لا ينجم عنها إلا الشر ولا يعيش في كنفها إلا الجابرة والمجرمين والإرهابيين. كما ناشد الآباء بوصفهما المربين الأول، الحرص على تعويد أبنائهم السلوك الحسن بمنحى عملي، أي إنهم لا يرتكبون من الأفعال والخصال ما ينهون أبنائهم عنه (فلا يرددون أمامهم ألفاظ الفحش والبذاء وكلمات التخويف والتهويل كالبعع والجن والعفاريت وغير ذلك مما يحدث في نفوس النبت أثراً سيئاً لا يمحوه مرور الأعوام).



الأخلاق والتفكير الناقد

ينتقل الغلاييني إلى مجتمع المدرسة مبيئاً مع (ي دني)⁽²⁾ أن الأخلاق المهنية هي الدستور المراد تطبيقه على كل المشتغلين بالعملية التعليمية، بداية من المعلم ومروراً بالطلاب وانتهاءً بالعمال والخدم، فينبغي عليهم جميعاً الالتزام بالأخلاقيات والآداب التي لا يمكن فصلها عن طبيعة عملهم تلك التي تفرض عليهم الانضباط وحسن المعاشرة والرفق في التعامل واللين في المخاطبة والأدب في المحاوراة. وكان الغلاييني استشرافاً ما تعانيه مدارسنا اليوم من مظاهر الانحطاط (بذاءة المعلمين والمتعلمين، التحرش، العنف، التهرب من

(1) محمد علي الشوكاني: أدب الطلب ومنتهى الأرب، ص 91.

(2) ي دني: أصول الأخلاق، ترجمة إبراهيم رمزي، المطبعة السلفية، مصر، 1925.

التعليم، المتاجرة بالعلم، الرشوة، فساد البنية التربوية). فهذا هو يقول من أكثر من مائة عام «المدارس كثيرة، فيجب علينا أن نسعى لإصلاحها، وبذل الجهد لإيجاد روح الفضيلة والتهديب العالي في كل حجر من أحجارها، وكل خشبة من أخشابها. وبذلك نضمن مستقبل أبنائنا»⁽¹⁾. كما يؤكد متأثراً ببدر الدين بن جماعة⁽²⁾ (1241 - 1331م) على ضرورة تحلي العلماء بفضائل الأخلاق وكيف لا وهم ورثة الأنبياء، ويقول في ذلك «ولست أقصد أن يكون المربي شيخاً أو كاهناً وإنما أعني ذلك أن يكون متبعاً للحق محبا للخير والسلام، ذا وجدان صحيح وأخلاق فاضلة وعواطف شريفة، يسير بتلاميذه نحو ما يعود عليهم بالسلامة والنجاح»⁽³⁾.

ويفرق مفكرنا بين ما ينبغي على المدرسة غرسه في نفوس الطلاب من خصال ونظم وما يجب عليها اقتلاعه من عوائدهم ونزعاتهم، وذلك في حديثه عن الفضائل وأضدادها، فهذا هو يوضح أن العنف والاستبداد في المدرسة لا يولد الشجاعة، بل البلطجة، وأن القمع والظلم والقهر لا يضبط سلوك المتعلمين ويحببهم في النظام، بل ينمي فيهم رذيلة الغش والكذب والتحايل على القانون والجبن والرعونة. كما أن تسيب المدارس والمؤسسات التعليمية بعامة يحرم النشء ثم الشبيبة من عنصر تربوي غاية في الأهمية ألا وهو النموذج والقدوة والموجه الحكيم الذي ينبغي على المعلم أن يمثله في أذهان الطلاب ووجدانهم، أما إذا أدرك الطالب أن المدرسة لم تضيف لسلوكه

(1) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، ص52.

(2) بدر الدين بن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، دار البشائر الإسلامية، البطة الأولى

2008م، ص69.

(3) المرجع نفسه، ص52.

أو لذهنه أو لذوقه ما يعينه على تقويم ذاته ليصبح مواطناً صالحاً خادماً لمجتمعه ومتفانياً وصادقاً في ولائه وانتهائه لأتمته، فسوف يعزف عنها ويهرب منها وينظر إليها نظرة ازدراء واحتقار وذلك لأنه لا يرى فيها سوى سبجنا يسوسه عصاة من الجلادين والمرتشين الجهلة، وللأسف هذا حال معظم مدارسنا وجل مؤسساتنا التعليمية، فقد وصلت درجة التسيب والفساد في معاهدنا إلى أحط مستوى يمكن تصوره، فعصبة غير قليلة من بين أساتذة الجامعة لا هم لها سوى بيع ما يسمى (الكتاب الجامعي) والقليل منهم هم الذين يعتنون بمحاضراتهم ويسعون إلى تثقيف أذهان طلابهم ورعايتهم في شتى النواحي فينقلون أذهانهم من طور الترقيم إلى طور النقد والإبداع. ولا أكون متجنباً عندما أصرح بأن عملية تقييم الطلاب بداية من اختبارات القبول للأقسام العلمية وانتهاءً بمراجعة إجاباتهم في نهاية العام لا تخلو من الإهمال والعشوائية ناهيك عن الظلم وفساد الذمم في وضع الدرجات وترشيح الأوائل للعمل بالجامعة. ومن المخجل أن نتحدث في هذا السياق عن تلك الجرائم الأخلاقية التي تصدر من القائمين على المدارس والمعاهد العلمية والمتريدين عليها من الطلاب (التحرش الجنسي، السب والشتم، تعاطي المخدرات، العنف بشتى صورته، جماعات الإرهاب، التطرف العقدي، الملابس الخليعة، الترويج للنزعات الهدامة، والأفكار الشاذة) وذلك كله أضحى من الظواهر التي أصابت المعلمين والموظفين والمتعلمين على حد سواء. الأمر الذي أصاب الطبقة الوسطى المثقفة في مصر والعالم العربي الإسلامي بدءاً من عضال حال بينها ووظيفتها التي طالما اضطلعت بها لإنهاض الأمة وتوعية الجمهور وتجديد الأفكار وتنوير الأذهان وإصلاح ما فسد في عوائدها ومؤسساتها.

ويحذر مفكرنا من طاعون الغش والخداع والزيف والكذب الذي يمكن للمدرسة أو المؤسسة التعليمية القيام به لخدمة حاكم ظالم أو تجهيل المجتمع وتزييف وعيه أو للترويج لملة أو لمذهب أو أيولوجية أو إخفاء عيب أو حماية عصابة من الفاسدين أو ستر عجز أو تأهيل الرأي العام لسياسة تقوده للخنوع أو الخضوع لسلطة ما أو تأهيله للصبر على المذلة والرضا بالأمر الواقع وتخويله من مصير مجهول. فيرى الغلاييني أن كل من يقوم بهذه الأفعال الخسيسة يخالف آداب المهنة وأخلاقيات العلم وينقض الرسالة التي أنشئت من أجلها دور العلم ألا وهي تأهيل الطلاب للبحث عن الحقيقة ثم فحصها واستيعابها ونقض ما يلحق بها من زوائد وعوارض ثم التفكير في كيفية الاستفادة منها وتفعيلها لإصلاح الواقع المعيش، ويقول في ذلك «حوّل نظرك إلى تاريخ من تقدم من سلف العلماء، فترى أن مجالسهم كانت تغص بالأدباء، وتوج بأمواج العلماء: هذا يفيد وذاك يعترض والآخر ينتقد. ووجهة الكل واحدة، وهي نصره الحق وإظهار الصحيح من قواعد العلم - اللهم إلا ما شذ عن ذلك وهم قليل -، لا يُعبأ بهم، ولا يلتفت إليهم.. الانتقاد يحص الحقائق ويثير الأذهان ويوسع نطاق العقول ويبرز الحقيقة من خفايا الوجود بأبهى حللها وأجمل برودها... وما المنتقدون إلا كأطباء يرون العلل وأسبابها فيعملون على تطهير البدن منها، ويصفون لها من العلاجات والأدوية ما يكون عاملاً على إخراجها، وإراحة الجسم من أذاها... لولا الانتقاد ما بعث الله الأنبياء، وعلم العلماء، وأمر الناس بإتباعهم، والاستماع لنصائحهم، إذ الغاية من إرسال الرسل انتقاد العادات والأخلاق، ليرجع الناس عما ألفوه من الباطل واتبعوه من العقائد الفاسدة... متى وضع الحق

وظهرت آياته، وجب على المنصف أن يتبعه ويقر بخطئه، أيا كان المناظر أو المنتقد، لأن الحق أحق أن يُتبع»⁽¹⁾.

ولا غرو في إن الغلاييني قد طرق باب إصلاح المعاهد التعليمية، أما نحن الآن فأحوج ما نكون لفتحته لتطهير الركाम العفن المتزايد خلفه. فهل من سبيل إلى ذلك؟

وينتقل مفكرنا إلى الطور الثالث من أطوار فلسفة الأخلاق التطبيقية، ألا وهو الحياة العملية في المجتمع. ويلقي على الحكومة وأجهزة الإعلام والفنانين والصحفيين وبالجملة كل قادة الرأي والمؤثرين في البنية الاجتماعية والمحافظين على النظام والسلم الاجتماعي، بداية من رجل الشرطة ونهاية بالقاضي والحاكم، فيرى أن أثر هؤلاء في هذه المرحلة هو الأكبر، فإذا وجد الطالب الذي تخرج في بيئة أسرية صحيحة ومدرسية سليمة في سوق العمل ما يتنافى مع ما تربى عليه من فضائل سوف يقوده ذلك إلى الانحراف والجنوح والشطط والجموح وإضعاف ما في سريره من مبادئ وقيم، الأمر الذي يدفعه إلى إماتة ضميره والكفر بما تعود عليه في طفولته وسنون صباه. كما حذر من رفاق السوء الذين نشئوا في ثقافاتٍ وبيئاتٍ منافية ومغايرة للمشخصات الأخلاقية القويمة، ناصحًا الآباء والأمهات فحصى أصدقاء ورفاق أولادهم ولاسيما في سن الشباب حتى لا يُستقطبوا من قبل معاند جائر أو متعصب جاهل أو فاسد فاجر. على أن يُقَوِّمُوا الأبناء في هذه السن بالنصح والتوجيه بشيء من الرفق واللين والترغيب الحاسم وفي هذا السياق يقول «يجب على القوة الحاكمة أن تبحث عن الشرور وأصحابها، وتنقب

(1) المرجع نفسه، ص ص 102 - 106.

عن مواضع قتل العقل والشرف، وإهلاك الأجسام، وإتلاف الأموال، فتقفلها. وإن لم تفعل ذلك ضاع مستقبل الشبان ورجعوا بخفي حنين بعد عناء التريتين». (1)

ويبحث مفكرنا قادة الرأي على تبصير الشباب بالمعنى الحقيقي للحرية وتفهمهم أن احترام القوانين من شيم الأمم الناهضة وأن الشطط والمجون لا يقودهم إلا حيث يعيش السفلة والمجرمين والأشقياء.

ويختتم حديثه عن الفلسفة الأخلاقية التطبيقية بقاعدة ذهبية، ألا وهي ضرورة تفعيل العدالة في المجتمع بكل أشكالها وتطبيقاتها، فإن الشعور بالظلم هو الذي يقود الناس إلى الانحراف، ويقول «التربية الصحيحة للأخلاق والشعور، هي أساس الفضائل ونبراس التقدم، وسلم الترقى، وروح النجاح، وأن ترقى المجتمع والأمم إنما يكون بحسب الهمم ومقدار الغزائم ولا تكون الغزائم القوية والهمم العالية إلا بتصحيح المبادئ وتقويم الأخلاق وذلك يكون بزرع بذور الملكات الصحيحة في عقول النابتة وتعويدهم الفضائل منذ نشأتهم حتى يكونوا رجال المستقبل، مع ملاحظتهم في دور الجهاد والعمل إلى أن يؤمن جانبهم». (2)

ويمضي مصطفى الغلاييني في حديثه عن أسس النهضة، موضحاً أن غاية أي مجتمع من التمدن والتقدم والرقى هي تحقيق السعادة لكل أفراد، ونقيض ذلك يكمن في الأنانية والإفراط في حب الذات وجحد الأغيار. فالاستثمار بالمنفعة يتولد عنه حب التملك واغتصاب ما في يد الغير وما

(1) المرجع نفسه، ص55.

(2) المرجع نفسه، ص56.

يتبع ذلك من سلب ونهب وانتهازية وجور واستبداد وقمع. الأمر الذي يقود المجتمع إلى التفكك ويولد الصراع بين أفراد وطبقاته وبالتالي تنعدم روح الانتماء والولاء والتعاون بينهم ويقول «حب الذات يُطلق على معنيين: أحدهما مذموم والآخر ممدوح مقبول معقول. أما الأول فهو أن يميل إلى الاستبداد بالأمر، والامتناع بالمنفعة دون غيره، ويبدل ما في وسعه وطاقته لسد أبواب الخير عن سواه، وتضحية المئات من منافع الخير في سبيل خير جزئي يعود له، أو نفع قليل يرجع إليه. فحب الذات بهذا المعنى رذيلة وحشية لا تصدر إلا عن فقد الشعور الإنساني والمرحمة القلبية، ولبس من الهمجية ثوبا طويلا الأذيال واسع الأردن. ولا أبالغ إذا قلت إن أكثر الناس قد نهج هذا الخلق السيئ، وخاض في تيار ذلك الأمر الذي كاد أن يقضي علينا أو قضى، فنزع ما في قلوبنا من الحب والشعور فاستبدلنا الذي هو أدنى بالذي هو خير». ⁽¹⁾

وصفوة القول أن الغلاييني يرى أن الدواء الشافي من كل ما نعانیه اليوم هو الحب بأصدق معانيه ودلالاته التطبيقية، حب ينبع من داخل الأنا وقناعاتها الحرة بأن الفضائل والمثل العليا ليست من المظاهر بل من المخابر وأن أصولها في الطباع ونموها في الالتزام وثمراتها في التفعيل. أجل هو الحب الذي تنكسر أمام قوته كل قوى الشر والأنانية والعنف والتعصب والتطرف والحسنة والدنس والخيانة والغدر، حب عادل وحكيم يعيد للمربي حرصه على رعاية النشء وللمعلم كبرياءه ونزاهته ودرسته وعفته وإخلاصه ورقته ليصعد من جديد على منبر النبوة الذي ورثه واستخلفه

(1) المرجع نفسه، ص 60.

الله عليه، وحب يتغنى به صرير أقلام المصلحين والإعلاميين والنقاد والمبدعين لشحذ همم الشباب وإنهاضهم لتحقيق ما تسعى إليه الأمة من سعادة ورخاء وأمن وسلام.

وحري بنا أن نتساءل: هل في مقدورنا التمييز بين حب القوة، وقوة الحب في تدبير شؤوننا وتوجيه سياستنا وتحقيق مقاصدنا؟؟؟

